الوصية

قصة

بقلم نديم نعيمه

تلك كانت ليلة من ليالي تشرين ، وقد هادنت فيها سماء الصيف غيوم الشتاء ، فتغامزت النجوم وتراقصت النسائم ، وغمرت نعومة الليل ارجاء الأثير .

كنت اسير في شوارع مدينة لا اعرفها بسوى انها من معاقل القرن العشرين . مدينة صاخبة رعناء . كلما حاول الليل اغماض اجفانها بأنامله السحريّة ، رفعته بآلاف العيون والمصابيح ، وكلما لفلف اذنيها بسكونه الرقيق زجرته بالآف الحناجر والأبواق وأصمّت اذنيه بأصوات المعامل والمطارق والدواليب .

كنت اشق طريقي بين آلاف المخلوقات من بني جنسي ممن ضاقت بهم رحابة الارض فأتوا يوسعونها على ارصفة الشوارع . لقد كانت حركاتهم تتراقص امام عيني ، واصواتهم تتزاحم في اذنيّ وانفاسهم تحيطني من كل صوب وتتغلغل في صدري واحشائي الا انني ما كنت لأصغي او ارقب او أتنشّق لان المهمة الغامضة التي كنت اسير وراءها آنذاك ، والتي انتدبتني لها الليلة الفائتة لم تترك لي متسعاً لذلك . فساعتي كانت تشير الى السادسة وتهمّ ان تجتاز نصف الساعة الذي كان يفصل عقربها عن موعدي باسرع ما تستطيع . كان ذلك الموعد يشغل كياني باسره ويطرح علي اسئلة ما كنت استطيع الاجابة حتى على ايسرها؛ماذا سيكون شأني مع زاروبة الوطواط يا ترى ؟ وما هي تخشيبة رقم ١٦ في تلك الزاروبة ؟ ومن هو ذلك المجهول الذي يريد مقابلتي في الطابق السفلي تحت ارض تلك التخشيبة ؟.

اسئلة غريبة كانت تجوب مخيلتي فتنتهرها ملامحي بتجاعيد عميقة بين حاجبي وتجيبها قدماي بخطوات سريعة متلاحقة .

الامثلة في هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التي تمثل مدينة الاحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاثة كيلومترات . وخارج هذا الحائط من كل النواحي ، تقع مدينة الاموات التي تفوق جميع مثيلاتها في العالم اليوناني الروماني القديم من حيث الكم والكيف على السواء. والناظر من الهضبة الغربية الى سطح الجبل الشرقي يرى المئات بل الالوف من المقابر المنقورة في الصخر طبقات فوق طبقات من اعلى الجبل الى اسفل السهل ، اكثرها قد كشف ، ولكن بعضها بدون شك لم يكشف عنه بعد . غير ان محتويات تلك القبور نهبت الا التوابيت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير . ومن الظواهر الغريبة ان عرب تلك المنطقة وضعوا أيديهم على اغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومراحاً لقطعانهم في الليل.

وابولونيا او مرسى سوسه ، وهي كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات الى الشمال الشرقي منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحي البيزنطي ، احداهما ترجع الى القرن الخامس الميلادي ، واغلب الظن ان عمدها الكثيرة قد أخذت من بناء او معهد وثني اقدم عهداً ، وفيها امثلة حسنة من الفسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . اما الثانية فقد بناها الامبراطور جستنيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء باعمدتها الرخامية من محجره الشهير في بروكونوسوس على شاطيء الدردنيل ، وحالتها اقل جودة من حالة الكنيسة الاولى لطغيان البحر عليها. اما المدينة الحديثة فهي اكبر بكثير من الشجات ، تأنق الطليان في تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالاشجار الباسقة والنوافير الجميلة التي تتفجر منها المياه الجارية ، ولا ادري لماذا نزع الطليان الى طلاء منازلها باللون الاحمر الوردي على خلاف عادتهم في طلاء مساكنهم في بقية المدن باقليم برقة باللون الابيض الناصع .

اذا ذكرت قورينا او الشجات فلا اذكر معها آثارها فحسب ، وانما اذكر رحلتي اليها من درنة وزيارتي رأس الهلال ومنزل « بالبو » الصيفي في الطريق ، واذكر يوماً قضيته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر في زيارة قرية البيضاء.

اما رأس الهلال فالطريق المؤدية اليها تتفرع من الطريق الرئيسية شمالاً عند مكان يدعى للمودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات اسسها الجنرال بالبو ايام صولته خصيصاً للوصول الى البقعة التي انتقاها لتكون مقره الصيفي . ولا نبالغ اذا قلنا ان المنطقة التي يخترقها المسافر في طريقه الى رأس الهلال لا تقل في جمالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوروبا ، حتى ان المتأمل في جبالها واوديتها ليسبح به الخيال الى جبال الغابة السوداء او جبال ويلز او منطقة البحيرات الايطالية او ساحل الريفييرا ، اما منزل بالبو — وهو اليوم

(البقية في الصفحة ٧٦)

وما طال بي الوقت حتى رأيتني أدخل الزاوية ، أشق طريقي في منعرجاتها فتلفّ وجهي أسراب البعوض والصراصير وتزدحم في انفي روائح النتن المتصاعدة من كل زاوية ، وتداعب شعري عثرات الخرق المنشورة على الاعمدة والأمراس ، وتساير قدماي نفايا مدينة أبت ان تستودع أسرار امعائها غير سكان الزواريب من ابنائها الكادحين .

وبينما كنت اسأل نفسي عن ذلك الجاذب الخفي الذي كان يشدّني بتلك القوة الى مكان كل شيء فيّ يدفعني الى تركه كانت عيناي تنتقلان من تخشيبة الى تخشيبة ومن سقفية الى سقفية علني احظى على اخشابها المتهرّئة المخلعة بشيء يشبه رقم ١٦ . واخيراً وجدتني انحرف الى ناحية من نواحي الزاروبة ، وأهبط بضع درجات متعرجة وانتصب في وسط قبو عار مهجور قد تبعثرت في ارضه اكياس القنب واندثرت في زواياه قطع من الامراس القذرة والأخشاب المفككة ، وانحدرت من سقفه خيوط العنكبوت فابى الدخان المتراكم الا ان يصبغها بلون السقوف والجدران .

لم اكن اعرف ماذا كان ينتظرني في ذلك القبو الغريب المظلم ، وما كنت اتوقع قط ان ينبعث من تحت اكوام الخيش والقنب في أرضه صوت بشريّ يدعوني باسمي فتستأنس أذناي بنبراته .

— سامحني .. سامحني يا استاذ ، لقد اسأت ظني بالناس هذه الليلة فما حسبتك تهتم لرسالتي فتزعج نفسك بالحضور الي .

وانعمت النظر في وجه مخاطبي وتشبثت اذناي بتهدجات صوته فعرفت فيه ابا محمود بائع الكشة القديم الذي كان لا ينقطع عن الدوران في حينا ، والذي كثيراً ما كانت نبرات صوته « شوكولا علكه دروبس .. شوكولا علكه دروبس » تتخلل نوافذ مكتبي فتفسد علي ما كنت اقرأ او اتأمل . وقبل ان استجمع افكاري المشتتة فاسأله عن حاله وعن سر انقطاعه عن حينا في المدة الأخيرة ، ظل مستطرداً في كلامه قائلاً :

— لا .. لا اريد أن اعتذر اليك يا استاذ ، فذلك لم يعد من شأني الآن . ان كانت هناك ضرورة للاعتذار فليعتذر الموت ولتستغفر عيني الشيخوخة ، فابو محمود هذه الليلة يصفي حسابه مع الايام ان كان له مع الايام حساب . وانت ان كنت قد استأت مني فانا سأهرب من استيائك بعد حين . وعلى كل حال سامحني يا استاذ .. ارجوك سامحني .

— ولماذا الاعتذار يا ابا محمود ، وعمّ تعتذر ؟

— الا يكفي اني قد أزعجت انسانا مثلك برسالتي البارحة ، اذ دعوتك اليّ وجعلتك تنقطع عن كل اعمالك فتهيم في المدينة هذه الليلة مفتشاً عن ياخور يرقد فيه بائع كشة ، وتستتر فيه عن عين هذا الوجود جيفة نتنة ؟

وكأني سمعت غصة في صوته فالتفتّ الى رأسه البارز من تحت الخيش فلم أر فيه الا كومة من الشعر الابيض المتشابك يتخلله تجويفان لمعت في اعماق كل منهما ومضة من بريق .

— لا .. لا تقل هذا يا اخي . انا لا اريد ان اسمع منك هذه الكلمات يا ابا محمود ، اليس بائع الكشة واحداً من مخلوقات الله ، فلمَ لا يهتم به واحد آخر من مخلوقات الله مثلي ؟

واقتربت من الرأس الهرم اجسه بملء كفي علني أشعر صاحبه بعطفي واهتمامي لامره ، وافهمه بلغة غير لغة اللسان انني لست متقززاً من اسماله المتهرئة ورائحته النتنة ورأسه القذر ، واني مستعدّ ان اقوم باية خدمة يطلبها مني لوجه الله . وكأنه فهم ما يجول بخاطري فتململ بين اسماله متمتماً :

— ما شككت يوماً بطيب خميرتك وجودة محتدك . فلقد احبك قلبي منذ اللحظة الاولى التي لقيتك بها . اذ كان وجهك يفيض دفئاً وحناناً كلما اشتريت من كشتي شيئاً . ولقد كانت ابتساماتك الرفيقة تذكرني دوماً بانسانيتي . لا ... لا تقل اني اثقلت يا استاذ فما عاد يثقلني اليوم يجديني . لقد قرأت كل شيء في وجهك ، وليس كالوجه فضاح لما يكتمه اللسان . لذلك قد تمنعت بثقتي ومحبتي فما خيبتني ثقتي هذه الليلة ، ولا جدّفت علي محبتي .

كانت كلمات الرجل تدخل قلبي فتعصره عصراً ، وتجول في مخيلتي فاحار فيما افعل مع انسان يكنّ لي محبة وتقديراً ، كل شيء في يعلن اني لا استحقهما . بينما كنت نسيت الرجل منذ ان اختنقت آخر نبرة من نبرات صوته في ارجاء حينا فما عادت تذكرني بوجوده ، أراه قد اصطفاني من بين كل الناس ليستودعني ما يكنه من ثقة وتقدير ومحبة . وعقدت النية على ان اكفر في تلك الليلة عن تقصيري تجاه الرجل ، فجثوت على ركبتي قرب كومة الخيش التي كان يتدثر بها ، وأمررت يدي على شعره ، واستحلفته بأعز ما لديه في الدنيا الا يتورع في طلب اي شيء يحتاجه مما استطيع القيام به ، وان يحسبني كابنه فلا يسمح لحائل ما ان يقوم دون مصارحته اياي بكل ما امكن من تقديمه في خدمة شيخوخته . ومددت يدي الى محفظتي محاولاً ان أقدم له بعض ما فيها من النقود فاذا بأبي محمود ينتفض من تحت اسماله فيقبض على يدي بكلتا يديه ثم يستوي جالساً بحركة عصبية ويحدق في وجهي وكأن كل شيء فيه يفيض علي عتباً وتأنيباً :

— لا يا استاذ .. ليس من اجل هذا استدعاك ابو محمود هذه الليلة . لقد ولى ذلك الزمن الذي كنت احتاج فيه اية خدامة من الناس ، وتصرمت تلك الايام التي كانت تنفعني فيها حفنة من نقود . لا .. ما استدعيتك لتقدم لي شيئاً من العالم بل لأقدم للعالم آخر شيء تمتلكه يداي . امستعد انت لتقبل ما اعطيك ؟

ووقفت ازاء كلمات الرجل حائراً لا اعرف كيف افكر وبماذا اجيب . وكأن ابا محمود لاحظ ما بدا على وجهي من حيرة فانبرى يبددها قائلاً :

— لا تعجب من كلامي يا استاذ ، فابو محمود الليلة على سفر ، وسفري هذا سيكون من هذا العالم لا اليه . لذلك ما عاد باستطاعة هذا العالم ان يسدي اليّ أية خدمة . وديار اتوجه اليها هذه الليلة لا تسمح للسافرين ان يصطحبوا معهم فيها اية حقيبة او محفظة . لذلك تعذر علي ان استعين بما تبرعت بتقديمه الي من امتعة ونقود ، وصممت ان استودعك بنفسي ما لم يعد بوسعي بعد الآن حمله . نعم يا استاذ ، ان ابا محمود يشعر بان هيكله هذا بعد ان اعتذر للكشة منذ سنين لعجزه عن حملها يستعد الليلة لكي يعتذر مرّة ثانية لا للكشة بل للحياة . لذلك ما استدعيتك الليلة لآخذ منك بل لاعطيك . فالخدمة الوحيدة التي تستطيع اسداءها الى هي ان تتقبل ما اعطيك . أمستعد انت لتقبل وصيتي ؟

وضع ابو محمود سؤاله هذا بطريقة ما كنت استطيع معها ان اجيب .

— ولكن لماذا تختارني انا من بين كل الناس لتستودعني وصيتك ؟ أوحيد انت في هذا العالم يا ابا محمود ؟ اين ولدك هذا الذي تكنى باسمه ؟ اوليس لك في هذا الوجود من يلوذ بك اكثر مني ؟ افلا استطيع ان انطلق فأحضر اليك احداً من اقاربك او محبيك ؟

— وحيد هو ابو محمود في هذه الدنيا يا استاذ ، فاهلي قد غابوا عن ناظري منذ امد بعيد حتى اني ما عدت اعرف لي في هذا الوجود اهلاً .

اما محي فقد تبددوا يوم نزع عني الوجود كل ما كان باستطاعة النـاس ان يحبوني من أجله . وحيداً عاش ابو محمود يا استاذ وها هو اليوم يموت وحده والدنيا باسرها لاهية عنه . لقد حاولت مرة ان ابدد وحـدتي فاربط حياتي بحياة شيء من الاشياء على وجه الارض ، فعانقت الكشة وعانقتني . الا انها اعتذرت الي يوم بدأت اعتذر للحياة وراحت ترتبط باعناق غيري من الناس . وهكذا ذهبت هي لتحيا وجئت انا لأموت .

– اتعني بأن أهلك باسرهم قد ماتوا يا ابا محمود ؟

– لست ادري يا استاذ . لو كنت متأكداً من ذلك لما كان في مجيئك اليّ الليلة اي معنى على الاطلاق .

– وأي معنى هذا الذي تعنيه ؟

– إي يا استاذ لو كنت متأكداً ان محموداً قد مـات وان آخر رابطة تربط ابا محمود بهذا العالم قد انقطعت لمـا كان عندي اي اهتمام في ان اوصى للأحيـاء من بعدي بشيء . الا ان املاً ضعيفـاً لا يزال يراودني وهو اني بتركي هذه الدنيا ، لن احي من سجلها بل سأترك فيهـا قطعة من كياني وفلذة من كبدي ونسمة من روحي تتمشى تحت الشمس وتذكر الوجود من بعدي بان ابا محمود ما ذهب هبـاء منثوراً ، ولا كانت حياته باسرها سخافة وتجديفاً ، وموته هزء من القدر وسخرية . اي يا استاذ لولا أملي في ان محموداً لا يزال حياً لكنت الآن أموت وليس في اذني الا ترجيع لقهقهة القدر وليس في نفسي الا حرقة من وجود بذل جهده في ان يخدعني فانطلت علي الخدعة . اجل . ما كنت اوصي لاحد من الاحياء من بعدي بشيء لولا املي في ان يكون محمود في عدادهم ، فأكون بالتفاتتي الى واحد منهم قد التفت اليه من غير ان يدري ولا ادري. ليس من شيء يستطيع ان يؤنسني في ملاقاتي للموت الا التفاتة قصيرة الى الاحياء من بعدي . أوهم بها نفسي اني قد رأيت محموداً في عدادهم .

وتجاهلت دموعاً صافية تترقرق على لحية ابي محمود وحاول ان ازيل من مخيلتي اسئلة ما كنت استطيع كبتها .

– واين هو محمود يا اخي، وكيف حدث ان افترقتما فما عاد احدكما يعرف عن حال الآخر شيئاً .

– يعود ذلك يا استاذ ، الى الحرب الاخيرة ، يوم كنت في وطني الاصلي . ويوم دعيت الى حمل البندقية فما كان باستطاعتي رد ما دعيت اليه .

ووقفت ذات ليلة من ليالي تشرين الهادئة كهذه ، على درج منزلي ، بندقيتي في كتفي ومحمود على زندي اودعه وداعاً ما كنت متأكداً من لقاء بعده ، وام محمود من ورائي تربط في عنقي حجاباً دعته « حجـاب السلامة» وتوصيني بالا انزعه حتى اعود الى منزلي سالماً اذا سمحت لي المعارك بذلك وتعهد الحجاب بحراستي . ولكم افهمتني ام محمود آنذاك بان هـذا الحجاب سيقيني من الموت والرصاص ان حافظت عليه وسيرجعني من الحرب سالماً ان شاء الله. ولقد سر محمود جداً بذلك الحجاب آنـذاك فراح يتلهى بسلسلته الذهبية المدلاة من عنقي ساعة كنت اشبع عنقه ضماً وتقبيلا واغسل بدموعي زنده الصغير الممتد الى صدري دون ان يعرف لتقبيلي ذلك اي معنى ، ودون ان يفقه الحكمة في سلسلة ذهبية لمـاعة تطوق رقبة ابيه ولا تطوق رقبته . لقد قبلته القبلة الاخيرة وذرفت الدمعة الاخيرة على زنـده ساعة كان يقبل السلسلة في عنقي ويذرف دمعته الاخيرة على سلسلة لمـاعة حرمته منها رقبة ابيه .

ووضعت الحرب اوزارها ، واستطاع حجاب ام محمود ان يقيني من رصاص المعارك ومن براثن الموت . وكثيراً ما نجاني من ويلات كان من المستحيل ان ينجو منها انسان سواي . فبتّ اعتقد بقدسيته واؤمن بقدرته وأعرفه لا كحجاب السلامة فقط بل كحجاب الحياة . ولكـن حجاب ام محمود هذا استطاع ان يفعل معي كل شيء الا ان يعيد الي منزلي ومـا ودعت في ذلك المنزل . فلقد رجعت الى دياري بعد الحرب فوجدتها مهدمة وليس بين خرائبها أحد . فهمت على وجهي في العالم احاول ان القى من ودعت فاذا بي القى الموت قبل ان القاهم .

واوقفت الفصات ابا محمود عن الكلام فمدت يسراه الى اكياس القنب تمسح بها دموعه . ورأيت يناه تمتد ببطء فتتغلغل في صدره وتخرج بسلسلة لماعة تحمل في وسطها حجاباً . ثم رأيت تلك اليد تمتد اليّ بهدوء ثم تضع في حضني ما كانت تحمله . وسمعت ابا محمود يتمتم على الأثر :

– خذه يا استاذ . فهذا الحجاب وصيتي اقدّمه للاحياء من بعدي فلعله يحرس غيري من الناس كما حرسني ، ولعله ان سلّم عنق احدهم من بعدي يسلم عنق محمود ايضاً. خذه يا استاذ خذه . فحجاب السلامة لا يليـق الا لاعناق الاحياء . لقد حفظني طيلة ايام كثيرة وقد آن له الساعة ان ينصرف الى رقاب من ساترك لهم الحياة بعدي حين . خذه بالله عليك خذه . فهذا ما دعوتك من اجله الليلة ولم تبق لي بعد الآن حاجة ممك . فاذهب في سبيلك واتركني والله ممك .

*

كنت في طريقي الى مكتبي حين اعترضني احد الصبية من باعة الكشة منغما في اذني كلماته المعهودة :

« شوكولا علكه دروبس ..شوكولا علكه دروبـس » اتريد شيئاً يا استاذ ؟

ما كنت اريد ان اشتري شيئاً من الغلام. الا أن الخاحه علي اجبرني ان أنفع كشته . وكمادتي مع غيره من الباعة ابتسمت في وجهـه وحاولت ان اجري بيني وبينه حديثاً . فسألته عن بقائه الى ساعة متأخرة من الليل في الشوارع ، اوما حان له الرجوع الى منزله ؟

إلا ان الغلام ضحك من سؤالي هذا ثم التفت الى وجهي التفاتة طويلة قائلا :

– وهل لامثالنا منازل يا استاذ ؟ كل هذه الارصفة منازل لنا متى شئنا استطعنا ان نبيت .

قلت :ليس لك اهل ينتظرونك فتأوي اليهم ؟

فضحك من سؤالي هذا ضحكة اخرى اطول من الاولى ثم قال :

اهل !! واي اهل تعني . اشكر الله اني لا اعرف لنفسـي اهلا . اوتريدهم ان يقاسموني نتاج نهاري ؟؟

ولا ادري لماذا او كيف اثرت في كلمات الصبي فاذا بيـدي تمتد الى جيبي على مهل ، واذا بي اطوّق رقبته بعد هنيهة « بحجاب السلامة ».

واستغرب الصبي تصرفي هذا فنفر مني اولا ثم التفت الى عنقه فراقـه منظر السلسلة ،فضحك ليعلن انه قد غفر لي تصرفي الغريب ثم انصرف .

وخطر لي ان اسأله عن اسمه ولكني قبل ان اقوم بذلك كان قد اختفى بين جموع السائرين، فما عدت اسمع منه الا صوته الفتي الرفيق وهو ينادي من بعيد :

« شوكولا علكه دروبس .. شوكولا علكه دروبس» فتركته وسرت في سبيلي. الا ان شيئاً في داخلي أوقفني بغتة ليقول :

« من يدري ... من يدري ، ربما كان اسمه محموداً . »

نديم نعيمه